



الدراسات الغربية الحديثة للقرآن الكريم وعلاقتها بدراساته الاستشرافية القديمة : أعمال

آن سيلفي بواليفو Anne-Sylvie Boisliveau أنموذجا

Modern occidental studies of the Qur'an and their relations with oriental old school : Anne-Sylvie BOILIVEAU works

خالد عثمانين*، جامعة يحيى فارس – المدينة الجزائرية. otmaninek@yahoo.fr

تاريخ المقال

النشر: 2026/03/31

القبول: 2025/05/23

الإرسال: 2024/02/04

الكلمات المفتاحية

ملخص البحث

الدراسات القرآنية
المرجعية الذاتية
الاستراتيجيات
الحجاجية
الاستشراق
المناهج الغربية

لقد شهد حقل الدراسات القرآنية في الغرب في السنوات الأخيرة تطورات كبيرة ونشاطا غير مسبوق، فبعد أن كان هذا النوع من الدراسات حكرا على مستشرقين لم يكونوا بالضرورة متخصصين في علوم القرآن، فتحت له اليوم تخصصات تعنى بدراسته في الجامعات الأمريكية والأوروبية. ومن بين أحدث هذه الدراسات كتاب للباحثة والأكاديمية الفرنسية آن سيلفي بواليفو عنوانه القرآن متحدئا عن نفسه، يتناول قضيتين أساسيتين هما : المرجعية الذاتية في القرآن الكريم، واستراتيجيات الحجاج فيه. وهذه الدراسة عبارة عن عرض لأهم ما ورد في الكتاب وفي بعض مقالات بواليفو، وهي بمثابة المدخل إلى قراءة المناهج الغربية الجديدة في دراسة القرآن وعلاقتها بالاستشراق.

Abstract

In the last few years, a Coranic studies has seen significant developements, this kind of studies was reserved to orientalistes who were not specialists in Coran sciences, and today many european and american universities opened specialities in order to study Coran. Among the most recent studies, the book of the french researcher Anne-Sylvie Boisliveau, entitled Le Coran par lui-même (a Coran by him self). He treats two great questions : Self-referentiality in th Coran, and his argumentative strategies. This report is a statement of the most important ideas of the book, and some articles of Boisliveau. It is an introduction to reading a new occidental methodologies of the Coranic studies and there relationship whith a orientalism.

Keywords

Coranic studies
Self-referentiality
Argumentative
strategies
Orientalism
Occidental
methodologies

1 مقدمة

تسعى هذه الورقة البحثية، إلى الإجابة عن التساؤل عن حال الدراسات القرآنية في الغرب اليوم، ونظرة هذه الدراسات إلى القرآن الكريم وطرائق تناولها له، هل هي دراسات جديدة من حيث المنهج والموقف من النص الكريم، أم مجرد امتداد للدراسات الاستشراقية التقليدية التي طالما استهدفت القرآن العظيم لتطعن فيه أو تبث الشبهات حوله بشكل ظاهر أحيانا ومضمّر أحيانا أخرى ؟ ولأجل بيان ذلك وقع اختيارنا، بحكم تخصصنا وبحكم دراسات سابقة كنا قد أنجزناها عن المستشرقين الفرنسيين وترجماتهم للكتاب العزيز (عثمانين، 2023)، على أعمال الباحثة الفرنسية آن سيلفي بواليفو، التي اتسمت بالجدة وبموضوعية وصرامة منهجية لا نجدها دائما في الدراسات الغربية.

وقبل الدخول في الموضوع، لا بد من التأكيد على أن هذه الورقة ليست إلا محاولة لفتح باب البحث والقراءة في الدراسات القرآنية الغربية، ولم نتقصّ فيها أعمال الباحثة ومشاريعها، وهي كثيرة، بل ألقينا نظرة على أهم ما ورد فيها لتتعرف على ما يقال عن القرآن في الدراسات الغربية الحديثة، فنكون تصورا عنها ونؤسس لمنهج في التعامل معها، ونبين أهمية عدم تجاهل هذه الدراسات، ولم لا نستفيد منها في دراساتنا وفي تصحيحنا للمفاهيم حول القرآن والإسلام.

لم يعرف الاستشراق التقليدي دراسات مستقلة تهتم بالقرآن وعلومه، أي في لغته وبلاغته وإعجازه، بل كان الاهتمام بالكتاب العزيز من جهة كونه مصدرا للتشريع الإسلامي، أي اهتماما بالمضمون وبتأويله أكثر من شيء آخر. ولهذا كانت ترجمة معانيه من أكثر ما اشتغل المستشرقون ولا يزالون عليه، منذ "أول ترجمة تعرض لها القرآن الكريم في تاريخه كانت في دير كلوني بفرنسا على يد بطرس المكرم وذلك في القرن الثاني

عشر، ومن يومها ظلت ولا تزال الترجمات الفرنسية للقرآن الكريم تزداد وتسجل إصدارات جديدة تضم نفسها إلى ذات القائمة" (زيدان، 2022، ص 516-517). وقد بلغ عدد الترجمات التي أصدرها المستشرقون الفرنسيون وحدهم في القرن العشرين عشرة، كما أحصتها زينب عبد العزيز (العزیز، 2014)، وتعني ترجمة جديدة لنفس الكتاب قراءة جديدة له، ذلك أن الترجمة في نهاية المطاف عبارة عن تفسير وتأويل للنص لكن بلغة ثانية كما تقرر ذلك في علم اللسانيات¹ (Jackobson، 1963). قراءات تتضمن في أحسن أحوالها شهما -ظاهرة أو مضمرة- وتحريفات لمعاني القرآن، كما بينا ذلك في الدراسة المحال إليها في المقدمة، وترفق بمقدمات أو بملاحق عن تاريخ الإسلام أو سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، باعتباره مؤلفا أو ملفقا تارة أو زعيما سياسيا تارة أخرى، إلخ.

¹ - إن مآل الترجمة في النهاية هو إيصال المعنى أو الرسالة (بالمعنى الذي يعطيها إياه جاكوبسون Jackobson في المخطط التواصلية)، واختلاف أنواعها ما هو إلا اختلاف في وسيلة إيصال هذه الرسالة. وهي الزاوية من الترجمة التي أشار إليها جاكوبسون في رسائل في اللسانيات العامة Essais de linguistique générale، في الفصل المعنون الجوانب اللسانية للترجمة Aspects linguistiques de la traduction.

قسم جاكوبسون الترجمة باعتبارها تأويلا/تفسيرا لعلامة لغوية إلى أنواع ثلاثة : ترجمة في اللغة الواحدة Traduction intralinguistique، تتمثل في تفسير علامات لغوية بعلامات لغوية أخرى من نفس اللغة (مثل شرح نص أو بسطه أو تلخيصه)، وترجمة من لغة إلى لغة أخرى Traduction interlinguistique، تتمثل في تفسير علامات لغوية بعلامات لغوية من لغة أخرى. ترجمة من نظام علامات إلى نظام آخر Traduction intersémiotique، تتمثل في تفسير علامات لغوية بعلامات غير لغوية، الإشارات أو الرسوم مثلا.

التاريخية حول القرآن وحول نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي باحثة نشطة جدا انتمت إلى العديد من الهيئات ودرّست بالعديد من الجامعات، وإنتاجها العلمي من تأليف للمقالات وتنظيم للملتقيات غزير أيضا. وبما أنها شخصية معاصرة فيمكن العودة إلى أعمالها وسيرتها الذاتية في موقع جامعة ستراسبورغ على النت ومواقع الهيئات التي اشتغلت بها.

أبرز أعمال بواليفو وأهمها، وهو الذي تنطلق منه أبحاثها اللاحقة وتدور حوله، هو الكتاب الذي نشرته في 2014 بعنوان *Le Coran par Lui-même*، عبارة يمكن أن نترجمها إلى "القرآن متحدثا عن نفسه"، وهو جزء من رسالتها التي قدمتها لنيل شهادة الدكتوراه. وتطرح الباحثة في مقدمته السؤال: "هل يعرف القرآن نفسه بنفسه هكذا؟"، وتعني بـ"هكذا" تعريفات كانت قد عرضتها لعلماء مسلمين من فترات وتوجهات مختلفة، أي أنها تريد أن تصل إلى تعريف للقرآن من نص القرآن مجرد من أي فهم أو تصرف لغير قائله.

سنتطرق في هذه الورقة إلى أعمال الباحثة من حيث منهجها ومن حيث تأثير التراث الاستشراقي عليها، وذلك من خلال الكتاب المذكور، الذي تدرس فيه قضية المرجعية الذاتية في القرآن، وتحلل ألفاظ الكتاب التي تتكلم عن الكتاب دراسة معجمية فيلولوجية على مرحلتين سينكرونية (آنية) ودياكرونية (باعتبار التدرج في نزوله). وسنعود أيضا إلى بعض المقالات التي نشرتها تحدثت فيها عن قضايا متعلقة بالقرآن أيضا: الوحي - ومعجزات النبي عليه الصلاة والسلام، وحجاجية القرآن ... لنقرأ على ضوءها الكتاب ونتبع توظيفها لنتائج.

وقبل أن نقتحم محتوى الكتاب ومواضيعه الرئيسية لا بد من تعريف مفهوم المرجعية الذاتية الذي يمثل قطب الرّحى فيه. وهو مصطلح مستمد من كلام اللسانيات عن وظائف اللغة، وتعرفها بواليفو كما يلي: "المرجعية الذاتية هي الطريقة التي "يتحدث" بها نص أو

لكن الأمر تغير نوعا ما في الثلث الأخير من القرن الماضي، سنعود إلى ذلك لاحقا بشيء من التفصيل، مع النفس الجديد الذي أخذته العلوم الإنسانية عموما، الأنثروبولوجيا (علم الإنسان أو الإناسة) خاصة، ونظريات تحليل الخطاب والحجاجية فيه، حيث بدأت تطرح التساؤلات عن علاقة المسلمين بكتابهم وعن درجة تعظيمهم له (التقديس بالمصطلح الغربي) وسلطته عليهم. وهو أحد العناوين الفرعية في مقال لبواليفو عنوانه *التقديس ودرجة السلطوية* قررت تحته: "بالنسبة للكيفية التي تنظر بها جماعة ما للكلمات التي تعتقد بأنها إلهية: إذا لم نفهم مقطعا من الكتابة المقدسة، فهذا يعني بأننا لسنا في مستوى السر، لأن الإلهي لا يمكن أن يتلفظ إلا بما هو منطقي وصحيح" (BOILIVEAU, 2011, p 154).

ظهر إذا توجه جديد يهتم بالقرآن بربطه بسياقاته القديمة والمعاصرة، وليس مجرد نص تراثي يخضع لدراسة فيلولوجية مثلما هو الحال في الدراسة الاستشرافية التقليدية. بدأ الاهتمام بقضايا مثل الإعجاز والبلاغة، وعلاقة القرآن بالحديث، والقراءات القرآنية، وغيرها مما لم يكن يطرق كثيرا من قبل وإذا طرح فمن أجل استخدامه للطعن والتشكيك، مثلما فعل جاك بيرك مع تنزيل القرآن منجما وجمعه في المصحف، ونحيل هنا إلى كتاب زينب عبد العزيز في الرد عليه وعلى مزاعمه.

وكما قدمنا، من الأسماء النشطة في إطار هذا التوجه الجديد أن-سيلفي بواليفو، أستاذة محاضرة بكلية العلوم التاريخية في جامعة ستراسبورغ بفرنسا، في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط، وعضو في لجنة البحث المختلطة أرشيماد (علم الآثار والتاريخ القديم: البحر المتوسط -أوروبا)، ومديرة لبرنامج "الإسلامولوجيا" في إطار مخبر الدين والمجتمعات في منطقة البحر المتوسط RESMED، الذي يعمل على تطوير الدراسات الجامعية

vocabulaire et argumentation du discours
coranique autoréférentiel، 2014، p 12-14).

عند تطبيق هذا الكلام على دراسة النص القرآني،
تنقسم المنهجية إلى قسمين : دراسته "على وجه الإجمال،
بصفته كلا متناسقا ويؤدي نفس الغاية، سيكون تحليله
سينكرونيًا. وفي المقابل، إذا تم تناول النص القرآني
بصفته توليفة لطبقات مختلفة من التركيب، ظهرت في
فترات زمنية مختلفة، فسيكون تحليله دياكرونيًا"
BOILIVEAU، Le Coran par lui-meme : vocabulaire
et argumentation du discours coranique
، 2014، p 15).

ويقع الكتاب الذي نحن بصدد ذكره في القسم
الأول، أي أنه دراسة سينكرونية، آنية، للكتاب الكريم،
وهذه الدراسة تقسمها الكاتبة إلى قسمين هي كذلك.
فالجزء الأول منه يتناول /المرجعية الذاتية المباشرة،
تدرس فيه المعجم أو الألفاظ الواردة في القرآن لتعريف
القرآن، ويتناول الجزء الثاني من الكتاب /المرجعية
الذاتية غير المباشرة، وتتمثل هذه الأخيرة في
الاستراتيجيات الحجاجية التي استخدمها القرآن الكريم.
لقد اتسمت هذه الدراسة من الناحية المنهجية
بالدقة والالتزام بما أعلنته في المقدمة، كما أنها كانت
أجمع ما يكون خاصة في البحث عن معاني الألفاظ إذ
عادت الباحثة إليها في كتب التفسير وعلوم القرآن وفي
عيون المعاجم العربية لتختتم بالدراسات الاستشراقية،
لكنها في دراسة الحجاج اعتمدت أساسا على تحليلاتها
الشخصية والدراسات الغربية للحجاج في الخطاب.

ومن الإيجابي في هذه الدراسة أن الباحثة كانت
مدركة لصعوبة التعامل مع موضوع هو القرآن، وأخذت
احتياطاتها من جوانب عدة كتحديد المصادر والمراجع
والالتزام باللغوي منها، وكاعتماد قراءة واحدة (عاصم
برواية حفص)، وغير ذلك. لكن ما نلبث أن نجد في سياق
الكلام عن الصعوبة لكونه "نصا مؤسسًا" يعظمه

خطاب عن نفسه، ويقدم لقارئه أو سامعه معلومة عن
نفسه. يكشف خطاب المرجعية الذاتية الصورة التي
"يريد" النص أن يقدمها عن نفسه، أو بالأحرى الصورة
التي يريد "المؤلف أو المؤلفون تقديمها عن النص لقارئه
أو قرائه" : BOILIVEAU، Le Coran par lui-meme
vocabulaire et argumentation du discours
، 2014، p 11).

وتأخذ هذه المرجعية الذاتية صورتين، تستند
بواليفو في توصيفهما بنظرية التناص في تحليل الخطاب
وفي النقد الأدبي، بالصيغة التي طورها جيرار جينات إذ
قسم صور حضور نص في نص آخر إلى خمسة أقسام،
نجد اثنين منها هنا :

1. الميتا-نص Métatexte أو النصية الواصفة²، تعليق
يقوم به النص على ذاته، بهدف إنشاء صورته الذاتية.
حسب ما جاء في بعض التعريفات، يتعلق الميتا-نص
بأوجه النص المعلق عليه، بعيدا عن طبيعته النصية؛
وفي تعريفات أخرى، لا يتعلق إلا بالأوجه النصية –أي
اللغوية أو اللسانية- للنص المعلق عليه. يقول شخص
مثلا: "أنا لا أتكلم بصوت عال!" (متحدثا عن النبرة أو
عن قوة الصوت في النص الملفوظ). فإذا أضاف: "أقول
هذا ليفهم بعضنا بعضا بشكل جيد"، تعلق الأمر بوجه
"غير نصي" (هدف النص).

2. التناص intertexte، أي عن حضور فعلي لنص في
نص آخر، عن طريق الاقتباس، وغيره. وتفضل بواليفو
تسمية هذا التناص، بتعبير أدق داخل النص
intratextualité، أي إعادة أو تقليد مقاطع أخرى
داخلية في نفس المتن. خطاب يعيد جزءا من ذاته يبسطه
ويقويه (BOILIVEAU، Le Coran par lui-meme :

² - لقد اعتمدنا في ترجمة هذه المصطلحات على : "معجم
تحليل الخطاب" (مانغونو، 2008، ص 317-319)

المسلمون ويعتبره أعداؤهم مصدرا للتطرف والعنف، عبارة تتضمن شبهة معروفة لدى المستشرقين وهي التشكيك في صحة القرآن الكريم وفي وحدته الشكلية والموضوعية من جهة طريقة تدوينه وجمعه، فتقول (التشديد لنا):

"تشكل اللغة القديمة والتاريخ غير المتيقن للنص في حد ذاتهما صعوبتين" (BOILIVEAU, Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, 2014, p 7).

فتاريخ النص، أي كتاب الله عز وجل المتواتر غير متيقن بالنسبة إليها، وهذا راجع إلى تطبيق منهج العلم التجريبي القائم على الشك المطلق، فنجد في هذه الدراسة الكثير من سوء الأدب مع الله عز وجل مثل الكلام عن مؤلف أو مجموعة من المؤلفين للقرآن من باب عدم اليقين المبدئي بكون الكتاب منه، مع أن أهم نتيجة أوصلتها إليها الدراسة هي أن القرآن يعرف نفسه بأنه كلام الله وبأنه كله من مصدر واحد لا مجال للقول فيه بنقل أو تلفيق. هكذا هي لغة العلم التجريبي.

ومع أن الباحثة يبدو أنها تأثرت بجاك بيرك في موقفه من التنزيل المنجم كما أوردت ترجماته في كتابها وهذه ملاحظة تحتاج إلى تتبع أكثر للجزم بها، لكن دراستها، مع تشكيكها في التاريخ، جعلتها تقر بأن القرآن الكريم "ولو كان خطابه، خاصة في الترجمات، قد يبدو "مفككا"، ينتقل من موضوع إلى آخر"، بل "غير متناسق" (بيرك، 2002، ص 722-723)، "غير متجانس ومجزأ" (دو بريمار، 2004، ص 30)، فهو في الواقع منطقي ومجادل بالحجج" (BOILIVEAU, Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, 2014, p 155).

لقد أفردت الباحثة صعوبة تناول النص القرآني بمقال مستقل، هو عبارة عن مداخلة لها في أيام دراسية دكتورالية في الMMSH (الدار المتوسطة لعلوم

الإنسان) (Anne-Sylvie, 2009)، وقسمت فيه هذه الصعوبات إلى ثلاثة أنواع، ثم اقترحت لها حلولاً هي عبارة عن المنهج الذي تبنته في كتابها الذي نحن بصددده، وهذا تحت عنوان مقاربة نص مؤسس : الصعوبات، والحلول والحدود انطلاقاً من قراءة القرآن، وهو يوحي بأن القرآن يخضع لنفس المقاربة في الدراسة التي يخضع لها أي نص مؤسس في ديانة أو مذهب ما.

أول نوع من الصعوبات هو كون النص القرآني موضوعاً لتوقعات ولتأويلات متعددة، من طرف المؤمنين به ومن طرف الجاحدين، والنوع الثاني هو تاريخ النص كما أشرنا، والذي تختلف فيه الرؤية التقليدية للمسلمين مع رؤى المؤرخين لأن ترتيب سور القرآن وآياته لم يكن كرونولوجياً، بالإضافة إلى قضية اختلاف القراءات، وثالثاً "التشويش" الذي يسببه بالنسبة للقارئ الغربي كون القرآن منتبهاً إلى ثقافة بعيدة في الزمان والمكان.

أما الحلول فتتمثل في عمليتين : الأولى هي "العودة إلى النص"، بإعطاء الأولوية للنص ولما يقوله هو ما أمكن ذلك، والثانية إنشاء قاعدة بيانات تجمع الألفاظ والمقاطع وحتى التفاسير وغيرها، اعتمدت بواليفو في البداية على مصادر ذكرتها منها موسوعات ومعاجم ورقية وإلكترونية، ثم أنشأت قاعدتها الخاصة باستخدام برامج الإعلام الآلي وتفصيل ذلك في المقال المذكور.

لقد صارت قواعد البيانات اليوم أداة ضرورية للباحث في أي موضوع كان، بما في ذلك الدراسات القرآنية، وتكمن أهميتها كما تذكر الباحثة في "ريح الوقت وهي الوسيلة لاكتشاف علاقات الخطاب القرآني وعناصره" (Anne-Sylvie, 2009، p 10). فائدة هذا العمل إذن لا غبار عليها، وتبقى مراجعة طريقة عمله والمصادر التي تعتمد عليها قواعد البيانات.

وليس الأمر بهذه السهولة بالنسبة للعودة إلى النص، والتي تصفها الباحثة كما يلي : "الفكرة هي، من

أجل التخلص من التأويلات السابقة، رفض استخدام ما يقوله التفسير الكلاسيكي (تفاسير القرآن) ونصوص التراث الأخرى، مثل أسباب النزول كمصدر للمعلومات" (Anne-Sylvie، 2009، p 5)، وهي مع ذلك تعي تماما استحالة فهم النص دون سياقه فأرادت تدارك ذلك باقتراح مقارنة فيها جمع بين المناهج النصية والمناهج السياقية في الدراسات القرآنية الغربية، بعد أن عرضت نماذج منها، مقارنة تتم على ثلاثة مراحل:

- تحديد السياق النصي، أي عزل المقطع الذي توجد فيه الفكرة أو الحجة المدروسة.

- توسيع السياق النصي ليشمل الكتاب كله، بالبحث عن الموافقات والإعادات والتناص.

- السياق التاريخي الذي تعني به الأفكار الدينية والثقافية لفترة النزول والجمع، والمعلومات حول اللغة ومفرداتها في تلك الفترة، وإلى حد ما سيرة محمد عليه الصلاة والسلام وجماعته (Anne-Sylvie، 2009، p 7).

نلمس في هذا إصرار الباحث الغربي في الإسلام على تجاهل علوم الآلة والتفسير التي أبدعها المسلمون من أجل فهم نصوص دينهم، من قواعد تفسير وأصول فقه ومصطلح حديث، ويحاول تطبيق مناهجه هو، وبواليفو فعلت ذلك كما قدمنا بدعوى الاختلاف الكبير في تأويل القرآن بين الفرق والمذاهب داخل دائرة الإسلام وخارجها. وبعد أن طغى علم الفيلولوجيا³ في مدرسة الاستشراق التقليدية، نجد اليوم "دعوات محمومة

³ -لقد شاعت ترجمة هذا المصطلح بفقه اللغة، والفيلولوجيا علم التحليل الثقافي للنصوص اللغوية المبكرة، حيث تقوم أساسا على دراسة النصوص المكتوبة والمبكرة، وتحقيق

لتطبيق نظريات الهرمينوطيقا والنقد الأدبي الغربي ونحوها في تفسير الشريعة الإسلامية"، وبالتالي القرآن الكريم لأنه مصدرها الأول، "دعوات فيها سذاجة دعائية مفلطحة، فهذه النظريات الهرمينوطيقية والنقدية والمال بعد حداثية لم يطبقها الغربيون أنفسهم في تفسير تشريعاتهم، [...] بل لم تطبقها عامة الكنائس الغربية في تفسير كتابها المحرف فكيف يراد منا أن نطبقها في تفسير كتاب الله المحفوظ؟" (السكران، 2014، ص 38).

لنعد الآن إلى محتوى الكتاب بجزئيه المذكورين أنفا. أما الأول المخصص لدراسة الألفاظ التي وصف القرآن بها القرآن، فجاء فيه عرض وتحليل وتفسير لمفردات كتاب، وقرآن، وذكر، وآية/ آيات، وسورة، ومثاني، وفرقان، وكلام عن الحروف المقطعة في بداية السور، وتعود بواليفو في كل لفظ تورده إلى معناه في أمهات معاجم العربية، وبعض التفاسير، وكلام المستشرقين ثم الدراسات الحديثة، بهذا الترتيب، وتختتم في كل مرة بخلاصة تثبت فيها أقوالا وتنفي أخرى أو تجمع.

في تحليلها للفظ كتاب، وصلت بواليفو إلى الاستنتاج بأن وظيفتها في القرآن هي تقديمه على أنه "كتابة مقدسة" تقابل الكتابات اليهودية والنصرانية، لكن من الخطأ حصر معناها في الكتاب أي المكتوب لأن اللفظة تعني أيضا الفرض والإيجاب، فيكون هذا المعنى متضمنا في كونه "كتابة مقدسة" وهو المعنى الرئيسي. فيكون القرآن كتابا مفروضا مأمورا باتباعه. وقد وقع المستشرقون في خطأ هذا الحصر، ونتيجة لذلك تقول الباحثة:

نسبها، وتحليل محتواها الثقافي والحضاري، واستكشاف علاقتها بما سبقها من النصوص.

"دفع هذا الخطأ على ما يبدو بعض المستشرقين إلى تحليل القرآن بمعيار ما يعرفونه عن الكتابات المقدسة اليهودية والمسيحية، ولما لم يجدوا بالضرورة العناصر التي توافق توقعاتهم، تفاجؤوا بل وأطلقوا أحكاما سلبية أو مغلوبة على خصائص القرآن. فلهذا الأخير ميزاته الخاصة به ومن غير العدل أن ندرسه وفق شروط خارجية، إلا إذا تبيننا بصراحة منهجية مقارنة" (Le Coran par lui-meme : vocabulaire, BOILIVEAU) et argumentation du discours coranique (p 38-39, 2014, autoréférentiel).

وهذا ما يسمى في قراءات المستشرقين للتراث الإسلامي بتقنية تقنية التوفيد أي "إرجاع علوم الإسلام إلى ثقافات سابقة" (السكران، 2014، ص 150)، فيكونون مثل من نقل القرآن عنهم أنهم ﴿قالوا أساطير الاولين اكتتبها﴾ [الفرقان، 5]، ففي ترجماتهم للقرآن الكريم مثلاً تجدهم يستخدمون مصطلحات من تراثهم المسيحي واليهودي مثلما ترجم بعضهم كلمة "صبغة" في قوله تعالى ﴿صبغة الله ومن احسن من الله صبغة﴾ [البقرة، 138] بكلمة baptême التي تعني عملية التعميد التي يخضع لها المولود أو من يعتنق الدين في النصرانية (عثمانين، 2023، ص 133).

ومن أمثله أيضاً ما ذكرته في سياق الكلام عن لفظة سورة، من ربطها بالكلمة العبرية شوراه الواردة في مشناه التوراة بمعنى "الصف أو الملف أو المصفوفة أو السلسلة" (BOILIVEAU, Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, 2014، p 84)، وترد بواليفو هذا القول ببيان إشكالاته، فالمعنى العبري بعيد عن المراد بالسورة في القرآن، ثم إن لتلك الكلمات مقابلات بالعربية تؤدي المعنى لو كان مراداً، وهكذا. كانت تحليلات الباحثة في هذا الجزء من الكتاب دقيقة وموضوعية على العموم، وقد ردت على الكثير من

الأخطاء في فهم مفردات القرآن، أما على وجه التفصيل فتحتاج إلى دراسة أعمق وأوسع للحكم على كل منها. أما الجزء الثاني من الكتاب، وهو المخصص للمرجعية الذاتية غير المباشرة، أي الاستراتيجية الحجاجية التي استخدمها القرآن الكريم، وقد عدت في الكتاب العزيز استراتيجيات ثلاثاً:

أ. الخطاب المتعلق بأفعال الله تعالى، ونجد فيه كلامه عن الآيات الكونية والطبيعية، والكلام عن الغيب وأخبار الآخرة، وأخيراً الكلام عن أخبار الأقوام السابقين.

ب. الخطاب المتعلق بالكتابات المقدسة السابقة، من حيث وصف القرآن لها، ومن حيث تعبيره عن علاقته بها، ثم نتائج هذا الخطاب في التعامل معها. في خاتمة هذا التحليل تتحدث الباحثة عن واحدة من أكبر المفارقات في العقيدة الإسلامية "التأكيد على مكانة الكتب السابقة وإقصاؤها في نفس الوقت يشكل مفارقة/تناقضاً قوياً" (BOILIVEAU, Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, 2014، p 297)، تقول ذلك رغم أنها قرأت جل الآيات التي تتحدث عن حال أهل الكتاب وتحريفهم لما أنزل الله إليهم وإبداءهم لبعضه وإخفاءهم للبعض الآخر، ثم تجعل التفصيل في طريقة تعامل المسلمين مع التوراة والإنجيل حسب النص أقوالاً لجماعات من المسلمين دون أن تحيل إلى مصدر.

"يصرح عدد من المسلمين بالاعتراف بالتوراة والأنجيل لكنهم لا يعرفون محتواها، وإذا عرفوه فلما أن يعتبروه محرفاً وإما أن يؤولوه بطريقة روحانية بحيث يتجاوزون الخلافات أو أنهم يرونها مختلفة لكن يصرحون بأن ما فيها موجود في القرآن" (BOILIVEAU, Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, 2014، p 297).

والحق أنه لا يوجد مسلم ينكر كون التوراة والإنجيل من عند الله، فهذا صريح نص القرآن، مثله مثل تأكيد التحريف الذي لحقها وتأكيد كلامها عن نبوة محمد ولبعض الأحكام الواردة فيها، ونفي بعض المقالات المحرفة، وفي القرآن غنى وكفاية للمسلم، هذه تفاصيل التعامل مع الكتب السابقة وليست مقالات مختلفة للمسلمين. وتبحث بواليفو عن الجمع بين ما تعتبرها متناقضات بالقول أن "القرآن على الأرجح مجموعة من النصوص التي ظهرت على مدى فترة طويلة بما فيه الكفاية" (BOILIVEAU، Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel، 2014، p 300).

ج. نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والجدالات، وفيها علاقته بالأنبياء السابقين عليهم السلام، واتهامه والردود على ذلك، ثم جدالات الأنبياء السابقين مع أقوامهم وربطها بجدالات الحاضر، أي زمنه عليه الصلاة والسلام.

ولما أنهت بواليفو عرض كل استراتيجية على حدة، ختمت الجزء بفصل رصدت فيه طريقة تمفصل هذه الاستراتيجيات في النص القرآني. وذلك أولاً من خلال منظومة الثنائيات في القرآن الكريم التي رصدت الكاتبة فيها ثلاثة أنواع : ثنائية الهدى/الضلال، وثنائية الخير/الشر والثواب/العقاب، وثنائية النور/الظلمات.

وثانياً من خلال الأدوات البلاغية المتمثلة أولاً في : الاستطرادات التي عدت بواليفو منها التعليقات على قصص الأنبياء السابقين، وعلى الأمر والنهي، وعلى الأمثال والمقارنات وأخيراً مقدمات وخواتيم السور. وثانياً في المفاهيم الضمنية التي اعترفت بصعوبة حصرها، ثم ذكرت في سياقها بعض التفسيرات الرمزية للآيات مثل تفسير قوله تعالى ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة، 75] بنزول القرآن منجماً على محمد صلى الله

عليه وسلم، أو ﴿والنجم إذا هوى﴾ [النجم، 1] بأنه القرآن إذا نزل، وهي أقوال ذكرها الطبري في جامع البيان. وأضافت إلى الأدوات البلاغية السابقة الإطناب أو تكرار ما هو واضح (بتعبيرها هي)، والقسم، جمعتها في مبحث واحد ختمت به هذا الجزء.

يجعلنا هذا نؤكد على دقة الباحثة وعلى سعة توظيفها للمراجع، وهذا ما أعطى للكثير من تحليلاتها قوة ووجاهة، لكن لا بد هنا من تسجيل ملاحظة تنطبق على كل كتاباتها، وهي العودة إلى المراجع دون التمييز بين علم وعلم من علوم الشريعة ولا بين فرقة وفرقة من الفرق الإسلامية ولا بين متقدم ومتأخر، بل ولا بين إسلامي وغير إسلامي، وتعتبر جميع المصادر في نفس المستوى، فتستعين بما يفيدها في الاتجاه الذي تريد انطلاقاً من كونها قارناً محايداً.

نلمس هذا في خاتمة الكتاب وفي مقال لها بعنوان محمد بين التفسير، والسيرة، والمذاهب والتاريخ، عندما تنطرق إلى حادثة انشقاق القمر للنبي عليه الصلاة والسلام، الحادثة التي يثبتها علماء الإسلام بالروايات الصحيحة⁴، فتشكك الباحثة فيها بناء على ورودها في مصادر اعتبرتها قليلة، ثم بناء على تكلف من حاول الاستدلال عليها باكتشافات وكالة نازا ولم يفلح ("ووصفتها بهذيان الإعجاز العلمي")، مما أدى من تسميم أصحاب السير المعاصرة إلى تجنب ذكرها فدل ذلك عندها على أن ذكر انشقاق القمر في القرآن ما هو إلا تصوير بلاغي للدلالة على قرب قيام الساعة (BOILIVEAU، Mahomet entre exégèse, hagiographie, rite et histoire, 2019, p 65-68).

⁴ - يقول ابن كثير : "وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات"، ثم يسوق الأحاديث الواردة في ذلك (كثير، ص 237-238).

ومن أهم النتائج التي تضمنتها خاتمة كتاب بواليفو، محصلة جمعت العناصر المركزية في المرجعية الذاتية القرآنية تحت عنوانين : /المرجعية /المهيمنة لليهودية والنصرانية، بحيث تصور الألفاظ القرآنية القرآن الكريم بأنه كتاب أنزله الله على نبي، على طريقة الكتب السابقة، ثم يدفع الحجاج بالفكرة إلى مدى أبعد من خلال مرجعيات ثلاث هي : الموازنة مع أفعال الله في الطبيعة، وفي الحاضر، فنزول القرآن مظهر من مظاهر قوته عز وجل، ثم الإحالة إلى الماضي، أي الكتابات السابقة فيعطي القرآن لنفسه مكانتها ويهيمن عليها، ثم الإحالة على النبوات السابقة بكونها من الله فتعرف نبوة محمد بذلك.

والعنوان الثاني هو حجاجية جد قوية، لا تتوقف عند إثبات مكانة الكتب السابقة للقرآن، بل أن لهذا الأخير سلطة مطلقة يريد إقناع سامعه وقارئه بها. فكرة بسطها الباحثة أكثر في مقال إعلان القرآن تقديس canonisation/القرآن (نترجم الكلمة بتحفظ)، تحدثت فيه عن ثلاثة مراحل لهذا التقديس : "صياغة لسلطة التلاوات المحمدية تسبق فعلية هذه السلطة، والتي تسبق بدورها عملية التثبيت" (BOILIVEAU, Canonisation du Coran ... par le coran, 2011, p 153)، ووصلت فيه إلى الادعاء بأن الصياغة النصية لمكانة القرآن كسلطة في قلب النص "تشوش المسالك" الموصلة إلى منابع مكانته المقدسة" (BOILIVEAU, Canonisation du Coran ... par le coran, 2011, p 167). وهذه الفكرة تحتاج إلى متابعة ورد مطولين.

ختاما من الجدير بالذكر أن بواليفو ليست أول من كتب في الموضوع، قد تكون من الأوائل باللغة الفرنسية، بحسب اطلاعنا، وبحسب ما ذكرته هي من دراسات سابقة لها، وهذه الأخيرة أغلبها من إنتاج المدارس الأنجلوفونية، الأمريكية خاصة، وهذا التيار الجديد في الدراسات القرآنية بدأ يفرض نفسه في هذا

الميدان جاعلا القرآن موضوعا مستقلا للدراسة، وليس مجرد جزء من التراث الشرقي.

ومما ندعو إليه في هذا السياق تتبع هذه الدراسات من أجل تصنيفها في التيار العام للاستشراق الحديث، الذي تجاوز الاستشراق الفيلولوجي، حتى نحدد أهدافها وكيفية التعامل معها. ذلك أنه "في النصف الأخير من القرن العشرين برزت مدرستان استشراقيتان [...], وهما : مدرسة أنثروبولوجيا الإسلام، ومدرسة المراجعين" (السكران، 2014، ص 99).

أما مدرسة أنثروبولوجيا الإسلام فهي تهتم بدراسة المجتمعات الإسلامية المعاصرة بتوظيف بعض النماذج التفسيرية في العلوم الاجتماعية. وأما مدرسة المراجعين فهي تقوم على الشك في كل المصادر الإسلامية والبحث عن مصادر تاريخية أخرى لدى الأمم المجاورة لحقبة ظهور الإسلام (السكران، 2014، ص 100). ولكل مدرسة ما تضيفه إلى ذلك "الأسلوب" الغربي للمهيمنة على الشرق وإعادة بنائه، والتسلط عليه"، كما يعرف إدوارد سعيد الاستشراق (سعيد، 2008، ص 45-46).

لا بد أن ننبه في الأخير إلى أن هذه الورقة البحثية لا تتعدى أن تكون قراءة سطحية لأعمال آن سيلفي بواليفو، كتاب "القرآن متحدًا عن نفسه" وبعض المقالات، والغرض منها ليس الحكم عليها أو الرد، فهذا يحتاج إلى قراءة أعمق ونفس أطول من مداخله في ملتقى، بل لفت الانتباه إليها وإلى أهميتها من أجل أن تؤخذ الدراسات الغربية بعين الاعتبار في عالم لم تعد فيه حدود بين غرب وشرق، فإما أن نستفيد وإما أن نصحح التصورات والمفاهيم حول كتاب الله عز وجل، أو نقوم بالأمرين معا.

قد تكون بعض هذه الدراسات جيدة منهجا وتوثيقا -مثلما هو حال أعمال بواليفو- لكن تتسرب إليها بعض الشبهات من الترجمات أو المراجع، أو الأخطاء في

4. BOILIVEAU, A.-S. (2019). Mahomet entre exégèse, hagiographie, rite et histoire. (Archimède, Éd.)
5. Jakobson, R. (1963). Essais de Linguistique générale. Paris: Editions de Minuit .

التحليل والتفسير، فهذا كان ضروريا الاهتمام بها من أجل الحرص على تقديم الصورة الصحيحة للقرآن.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

1. السكران، أ. أ. (2014). *التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات*. الرياض: دار الحضارة.
2. العزيز، ز. ع. (2014). *ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية*.
3. زيدان، م. أ. (2022). *الاستشراق الفرنسي: جولة الصراع العقدي والفكري خلال القرن العشرين قراءة في أبعاد الصراع وتاريخه*. تونس: دار المالكية.
4. سعيد، إ. (2008). *الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرقية*. م. عناني (Trad.)، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
5. عثمانين، خ. (2023). جوان (18 شهيات المستشرقين الميثوثة في ترجماتهم لمعاني القرآن الكريم: دراسة مقارنة في بعض الترجمات الفرنسية). ج. أ. (Éd.). 1. مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، (2) 15، pp. 123-142.
6. كثير، أ. أ. *تفسير القرآن العظيم*. دار الرشيد.
7. مانغونو، ب. ش. (2008). *معجم تحليل الخطاب*. أ. أ. للترجمة & Éd.، ع. أ. صمود (Trad.)، تونس: دار سيناترا.

باللغة الفرنسية

1. Anne-Sylvie. (2009, juin 3-4). Approcher un texte fondateur : difficultés, solutions et limites de l'étude du Coran. (MMSH, Éd.) communication effectuée lors des journées des écoles doctorales .
2. BOILIVEAU, A.-S. (2011). Canonisation du Coran ... par le coran. REMMM (129).
3. BOILIVEAU, A.-S. (2014). Le Coran par lui-meme : vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel. Leiden, Boston : Leiden.